المملكة المغربية
جامعة القاضي عياض
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
ببني ملال

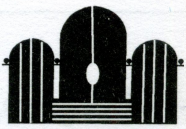

مجلة كلية الآداب

بني ملال

العدد : 8

2007

المملكة المغربية

جامعة السلطان مولاي سليمان

* * *

مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ببني ملال

تصدر مرة في السنة

* * *

المدير المسؤول : د. بناصر وسكوم

رئيس التحرير : د. بناصر وسكوم

هيئة التحرير :

- ذ. مولاي إدريس ميموني
- ذ. عبد الفتاح أبو العز
- ذ. الزبير بوحجار
- ذ. عز الدين نزهي
- ذ. العربي الذهبي

الطبع :

- الآنسة فاتحة البوشيخي

التصحيح والتحيين والمساعدة التقنية :

- ذ. بناصر وسكوم
- ذ. كوثر المومني
- ذ. العربي العميري

العنوان :

كلية الآداب والعلوم الانسانية

أولاد حمدان ، ص . ب : 524

الهاتف : 81 46 48 023

الفاكس : 72 17 48 023 / 69 17 48 023

العدد : 08 /2007

رقم الإيداع القانوني 39 / 1995

الطباعة والورقة الوطنية
IMPRIMERIE PAPETERIE EL WATANYA
زنقة أبو عبيدة، الداوديات - مراكش
الهاتف: 74 30 37 024 / 91 25 30 024
الفاكس: 23 49 30 024

الفهـــــرس

- إدريس ميمونـــي

تأملات في تاريخ النحو العربي. 9

- العربي الذهبـــي

تداولية الاستعارة عند جون سورل. 25

- محمد أزهري

البلاغة القرآنية في "كليات رسائل النور" للإمام النورسي – مفاهيم و قضايا- 57

- محمد رستـــم

أبو عبد الله القزاز و شرحه لغريب الجامع الصحيح 69

- مليكة حفـــان

فقه العلوم اللغوية و فهم القرآن الكريم 93

- جمال اسطيري

الكتابة عند المحدثين و دورها في صيانة المعلومة التاريخية 113

- عبد العزيز الضعيفي

السلطة الإسلامية و أماكن عبادة الذميين في صدر الإسلام و الدولة الأموية 135

- عبد العزيز أكريـــر

التأويل و الوعي التاريخي 149

- علال ركَـــوكَ

الحركة التجارية والملاحية للموانئ المغربية ما بين 1890 -1912 161

- محمد حـــواش

الحملة الفرنسية على مصر والهندسة الجديدة للعلاقات المغربية- الإسبانية 187

- محمد حقـــي

مجتمع في خدمة الموت أو هاجس الموت في المغرب والأندلس في العصر الوسيط 195

- تقـــاريـــــر
- محمد أزهـــري

تقرير عن الأنشطة العلمية والثقافية بالكلية برسم الموسم الجامعي 2004-2005 213

مجتمع في خدمة الموت

أو

هاجس الموت في المغرب و الأندلس في العصر الوسيط

ذ. حقي محمد
كلية الآداب – بني ملال

الموت؛ هذه الكلمة العجيبة والغريبة، التي تثير في النفوس مشاعر متناقضة تتراوح بين الخوف والتقزز وحب التداول المتكرر لها. والموت تقابل الحياة وهي الخطر الداهم والقوة الخارقة والهدوء الكبير والسكون والنوم الثقيل. لقد اجتمعت فيها كل الأوصاف المتناقضة. ونظرا للهيمنة التي تفرضها على الأحياء فقد نظر إلى الحياة على أنها فترة تكرس لخدمتها والبحث على التغلب عليها، فهي تحد دائم يتطلب أقصى درجات الحيطة والحذر والتيقظ. ولم تكن هذه الوضعية خاصة بأهل المغرب والأندلس لوحدهم ، بل تجاوزتهم إلى كل الشعوب والأمم في مختلف بقاع الأرض.

رسم سكان المغرب و الأندلس صورا عديدة للموت زادت مع تقدم السنين قتامة. فهي القدر المحتوم الدائم الحضور المتيقظ الذي لا مفر منه، و هي المنبهة للنفوس من غفلتها بحصد الأرواح ، والنهاية الحتمية لكل حي قوي أو ضعيف، قبيح أو جميل، تقي أو زنديق بدون فداء أو بدل، وهي القادرة على التنكر في صورة كأس شراب أو ساق أريب أو سهم أو رام يرميها. وتصير الصورة أكثر رعبا عندما يشبه بالرعب والداء العضال والسيف المسلط على الرقاب والريح الجنوبية الحارة والجافة ؛ التي تجفف كل شيء أخضر، والحيوان

المفترس والطائر الجارح والمحاسب و الجلاد القاسي [1]. وهذه الصور السوداء لا يمكن تفسيرها إلا بالعجز والخوف والحرمان الذي يشعر به الناس أمام هذا الأمر الذي لا علاج له و لا دواء.

بقي أمام هذا الإنسان العاجز أن يرضي جلاده بكل الوسائل ، فتحولت حياته إلى أفعال و أعمال للاستعداد له بشكل مهووس يجعل من يراقبه يحس بالموت يطل عليه من خلال كل تصرفاته . وتجاوز الأمر الأفراد ليتحول إلى سلوك جماعي بحيث صار المجتمع بدوره يعمل في خدمة هذا الجبار بما يوفره من خدمات وما يقوم به من أنشطة . فكيف قاوم هذا المجتمع هذا الاستلاب وتغلب على هذا الهاجس ؟

1- الأفراد أمام الموت: حالة الاستنفار الدائمة.

بحثا عن تخفيف وطأة سيطرة هاجس الموت، التجأ ساكن المنطقة إلى الاستعداد الجيد باستحضار الموت في كل أوقات النهار واستقباله بشجاعة وإصلاح الأخطاء ورد المظالم لأصحابها وتوفير أحسن الوساطات وأنجعها بالاختيار الدقيق لوسائل تجهيزه و مكان قبره و صدقاته الجارية من خلال وصيته .

1-1- التنبؤ بساعة الرحيل .

يعيش الأفراد؛ خاصة الكهول والشيوخ، تحت سيطرة الموت، فاستجابوا لهذا الضغط بالمواظبة على تذكره في كل أوقات اليوم أو التعرض لما ينبههم إليه . فقد اعتاد قاضي الجماعة في قرطبة أبو عبد الله محمد بن عبد الله الليثي (ت 339هـ/949م) أن يقرأ أبياتا كتبها على سرير نومه تحذره من الاطمئنان إلى الفراش الوثير وتدعوه إلى تذكر النعش و التفكير في الموت واستحضار النشر وأهواله والتنبه إلى الشيب الذي ينذر بقرب الأجل[2] . أما المتصوف الزرهوني

(ق 6هـ/12م) فيقول : "يكفي المرء (من الأعمال) ذكر الموت عند النوم" [3] . وكان ابن عاشر لا ينام إلا بعد كتابة وصيته ومحاسبة نفسه [4]. ويتبع ما سبق الهيئة التي ينام عليها كثير من الناس حيث يستقبلون القبلة على طريقة الدفن [5] .

إن هذا الحضور القوي للموت في عقل الأشخاص يجعل الكثيرين قادرين على تحديد ساعة موتهم . وتعج المصادر بأمثلة تمتد ما بين القرنين 3هـ/9م و8هـ/14م، لكنها تزداد كثافة انطلاقا من القرن 6هـ/12م . وبتتبع الذين يهمهم الأمر نكتشف أن غالبيتهم من المتصوفة حتى إن التنبؤ بالموت اعتبر علامة على صدق الولاية والميتة الحسنة . لكن ذلك لا يعني اقتصارها عليهم، بل همت أيضا حكاما وعلماء وأكثر من هذا نعتقد أن غياب عامة الناس مسألة مرتبطة بالمصادر المتوفرة . ونظرا لهذه الأهمية يهتم المحيطون بالمحتضر بتسجيل كل إشارة أو تلميح قريب أو بعيد إلى ذلك فيؤولونها وفقا لهواهم الذي يساير عقلية المجتمع.

يتحقق التنبؤ بطرق مختلفة يمكن جمعها في ثلاث حالات، وهي حالة اليقظة وسلامة الذهن وحالة الحلم أو سماع صوت مجهول ثم حالة تنبؤ شخص آخر غير المعني بالأمر .[6] . ويمكن القول إن الحضور القوي للموت وسلطته تجعل النفوس مستعدة لتأويل كل حدث مهما كان بعيدا في هذا الاتجاه .

1-2- تقبل الموت بشجاعة.

ساعدت الأجواء السائدة في أوساط المجتمع على الاستئناس بالموت وتقبله برضى إلا في حالات شاذة . لذلك وجد ناس يستعجلونه بالدعاء و يقبلون على القتال بشجاعة قد تصل إلى حد التهور، وحتى في حالة الصلب أو القتل (الموت الأحمر) كانت رباطة الجأش مفخرة وافتقادها يعرض المعني وأسرته للسخرية والاستهجان .

اعتبر الموت مخلصا من الهوان و ملجأ آمنا من متاعب الدنيا ، لذلك وجد من يدعو الله أن يعجل موته فرارا من القضاء أو طلبا للشهادة وفضلها أو ابتعادا عن فتن تلوح ملامحها في الأفق [7] .

اشتهر أهل المغرب والأندلس بقوة الصبر والتجلد عند الموت ، حيث يظهرون رابطي الجأش و تصدر عنهم تصرفات وأقوال تثبت ذلك . ففي سنة 259هـ/872م ، قبض الأمير محمد الأموي على بني قسي الثوار فأمر بقتلهم وعفا عن كاتبهم ، لكنه رفض و طلب تقديمه قبلهم فقدم [8]. ولما صلب أحمد بن محمد بن وسيم بطليطلة عام 401هـ/1010م لم يتوقف عن تلاوة القرآن بل وطلب من رامي النبل أن ينكب عن وجهه[9]. وعندما أحرق الكنبيطور القاضي ابن جحاف ببلنسية ضم إلى جسده النار قبل أن تصل إليه رافعا صوته بالبسملة[10].

ويلحق بهؤلاء بعض المساجين و المحاصرين الذين يفضلون الموت على المهانة و السقوط في يد الأعداء .فعندما ثارت العامة على ابن حسون بمالقة وأيقن بالهلاك اتكأ على رمح خرج من ظهره [11] .

ولم يقل المحتضرون على فراش موتهم شجاعة، فأغلبهم يتحول إلى مواس للحضور الغارقين في البكاء ويحذرونهم من الضعف والهوان ويوصونهم بالصبر والتجلد، حتى إنه ليخيل للمتتبع أن الحضور هم الذين سيموتون بعد قليل .

1-3- توقد مشاعر التوبة:

التوبة هي الندم على ما فرط من المعاصي والتوقف عن ارتكابها مع القدرة على ذلك . وأهم العوامل التي تشجع على اختيار طريق التوبة هما المرض والهرم. فكلما تقدم المرء في العمر كلما زاد إحساسه بقرب أجله وضرورة التفكير في مصيره الأخروي [12] . أما المرض فعادة ما يقوي المشاعر الدينية ويزيدهم رقة وقربا من خلقهم . فعندما مرض الحكم الربضي أخذته رقة وصار يسهر بتلاوة

القرآن[13] . أما محمد الأنجري السبتي (ت803هـ/1402م) فكان يبعث إلى كل من وقع بينه وبينه شيء فيستسمحه ويطلب منه الغفران وهو غارق في دموعه من شدة التأثر[14] . وقد تحدث بعض الأحداث العابرة تنبه الناس وتدفعهم إلى التوبة.

تتخذ التوبة صورا عديدة، وأبرزها تقوية العلاقة بالله بالحفاظ على الشعائر الدينية والمواظبة على العبادة، والتخلص من بعض العادات القبيحة مثل التعاطي للخمر أو الفلسفة أو المجون [15]، وإعادة بعض الحقوق إلى أصحابها [16]، وتوزيع الصدقات وعتق الرقاب وغيرها من أعمال البر والإحسان .

1-4- الاستعداد المادي للموت :

تعدى الاستعداد الجوانب الروحية والنفسية إلى أمور مادية جسدها وسائل التجهيز و الدفن والوصية التي سيأتي الحديث عنها في النقطة الموالية .

كان إعداد نفقات الدفن أو جهازه شائعا بشكل واسع في هذا المجتمع، بحيث يحرص كثير من الناس على ترك مال خاص بذلك ضمانا لتجهيزهم بشكل لائق أو تجنبا لمهانة تصدق المحسنين لدفنهم عند الموت على شفير قبورهم ، تماما كما فعل الزاهد أبو وهب عبد الرحمن العباسي القرطبي (ت 344هـ/954م) وأبو موسى الدكالي السلوي (6هـ/12م) و أبو حفص بن عبادل الرعيني (ت 378هـ/988م) والقاضي ابن وافد (ت 404هـ/1013م) [17] .

انطلاقا من القرن 4هـ/10م ، بدأ أشخاص يعدون بعض الأشياء الغريبة والمحملة بدلالات رمزية لتدفن معهم . فالمنصور العامري (ت492هـ/1002م) يجمع صرة من الغبار الذي يتناثر على ثيابه أثناء جهاده و يأمر أن تخلط بحنوطه[18]، وابن الحذاء القرطبي (ت 416هـ/125م) يعهد بدفن الكتاب الذي ألفه في الأسماء الحسنى معه [19]، و ترك أحمد بن عبد الحق بن سماك الغرناطي (ق 6هـ/12م) بطائق تصلية وبسملة بعدد العقود التي كتبها أثناء اشتغاله

بالتوثيق[20]، وأوصى آخرون بدفن أسماء أهل بدر أو نسخة من القرآن أو صحيح البخاري أو إجازاتهم العلمية. ويلاحظ أن هذه الأشياء تلخيص مكثف وشديد لأحب أعمال أصحابها إليهم في حياتهم أو تكفير عن عمل قاموا به دون رضاهم (الموثق) فهي بذلك تقوم بدور الشفيع والوسيط لهم كما أنها تحمل بصمات تفاخر وإشهاد للأحياء على حسن أعمالهم . وعمل آخرون؛ خاصة الزهاد والمتصوفة، على حفر قبورهم في حياتهم. واكتفى البعض بتعيين مكان القبر وتعهده بالتقديس والتطهير بتلاوة القرآن به باستمرار أو جمع أصحابه به لتدارس العلم (مكان تغشاه الملائكة كما ورد في الحديث النبوي) [21].

حمل القرن الرابع أيضا ظاهرة إعداد الأحياء لشواهد قبورهم أو ما يكتب عليها، وكان للأندلسيين الحظ الأوفر من ذلك، كما كان الشعراء أكثر حرصا عليها . وقد جمعنا كثيرا من هذه النصوص . و من هؤلاء نذكر ابن شهيد الشاعر وابن خفاجة و ابن المرحل [22].

ونشير في الأخير إلى أن هذا الاستعداد المادي بلغ أوجه في القرون الرابع والخامس والسادس، لكنه تراجع بعد ذلك كما ستبين الوصايا .

1-5- الوصية : وصايا البر و الموت .

حرص أهل المغرب والأندلس على وضع وصاياهم وهم في حالة صحية جيدة خوفا من مفاجأة الموت، لكن الكثيرين منهم ينتظرون لحظة الاحتضار لتذكرها أو يذكرهم بها الحضور [23] . بينما يطلب من المحكوم عليهم بالإعدام وضعها قبل التنفيذ [24] . ولن نتوقف عند كل محتوى الوصية وسنكتفي بدراسة ما يخص الموت وأعمال البر .

وفرت المصادر مجموعة من الوصايا أو بالأحرى مقتطفات قصيرة منها أو مجموعة من الإشارات إلى وجودها. و قد جمعنا هذه النتف و فرغناها في جدول

وفق متغيري الموضوع و الزمان ، و من خلال محتوياته يمكن فهم تطور هذا الموضوع .

المواضيع	وصايا	التجهيز				التأبين	المدافن				الصدقات			وصايا
الزمان	كفن	رموز	غسل	نفقة	صلاة	قراءة القرآن	قبر	مقبرة	مدينة	شاهدة قبر	أحباس	صدقة	عتق وفداء	تعبدية
ق2هـ/8م													1	
ق3 هـ/9م														
ق4هـ/10م	4	1	1		8				1		1	1	1	
ق5هـ/11م	2	1	1		4	1	3		1	8	1	1		
ق6هـ/12م	1	5	1	1	8		3	2	3	7	5	13	6	
ق7هـ/13م			3		1		1	2		1		5	2	
ق8هـ/14م						1	1				3	4		
ق9هـ/15م		1				1					4	4	5	2

وصايا البر والموت في المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط

يظهر الجدول بوضوح التركز الكبير للوصايا ما بين القرنين 4هـ/10م و7هـ/13م بينما تقل ما قبلهما وما بعدهما . فكيف يمكن تفسير ذلك ؟ الشيء الأكيد هو أن حضور الوصية ظل ثابتا داخل هذا المجتمع، لكن مواضيعها تتغير وتتطور حسب الأوقات. فقبل القرن الرابع، يبدو أن أهل الأندلس بالخصوص اعتبروا أن هذه الأمور بديهية ولا تحتاج إلى تأكيد فعملهم وأسرهم كفيلة بتحقيق ذلك . ويمكن التعرف على بعض اهتمامات الوصايا من وصية يحي بن يحي الليثي(ت 234هـ/849م) التي نصت على أداء دين وبيع مال ونصائح للطلبة [25]، ووصايا أخرى خصصت صدقات لبعض فئات المجتمع (الأسرى)[26]. وربما يؤكد هذا ضعف الاهتمام بالتجهيز تماما كما تثبت العناصر السابقة .

عرفت الأندلس والمغرب بعدها تغيرا كبيرا، حيث زاد الاهتمام بالتجهيز وحفل التأبين ثم الصدقات . وصار الموصون يهتمون بتجهيزهم بشكل يضمن لهم البركة والتقديس، لهذا يحددون نوع الكفن بل ويعدونه في حياتهم ويحرصون على شرائه من مال حلال . فهذا المنصور العامري حاكم الأندلس القوي يترك كل ثرواته ويتخذ كفنه من مكسب ضيعة ورثها عن أبيه وغزل بناته [27] . وآخر من سلا يخصص لجهازه دراهم وثمن مصحف اشتراه من عمله كناطور[28].

وثالث يعد أثوابا رثة طهرها بماء زمزم[29] . ورابع يطلب تكفينه في أثواب شهد بها الجمعة أربعين عاما [30]. و أضاف بعضهم أشياء غريبة تلخص عمله وتشفع له كما بينا أعلاه . وحدد البعض اسم الغاسل لبركته أو إتقانه أو صداقته [31] .

واهتم الموصون بتحديد إمام الصلاة في جنائزهم [32] وأماكن أدائها حيث طلب أحدهم أن يصلى عليه قرب جامع العدبس في إشبيلية [33] . وهذا الاهتمام يبعد الولي عن الصلاة للبحث عن أشخاص أتقياء ورعين علماء وأحيانا من ذوي الجاه و السلطة مما يكشف عن الرغبة في البركة لكن أيضا حب الظهور والتباهي.

ووجدت وصية يتيمة تتعلق بالتدخل في حفل التأبين ، حيث أوصى إبراهيم بن حسين بن شنظير(ق 4هـ) من طليطلة صديقا له بالمداومة على زيارة قبره و قراءة سورة "الإخلاص" عليه عشر مرات (34) .

يظهر العرض أعلاه أن الأموات لم يعودوا يتركون شيئا لكرم وجود الأهل والأقارب ، بل حرصوا على إعداد كل شيء بدقة متناهية مركزين على عناصر الحلال والبركة و العلم . وتكشف الوصايا عن البحث القوي للمعنيين عن وسيط مناسب وشفيع قوي بينهم وبين ربهم ، وكذلك انعدام الثقة في أعمالهم، و هو ما يبين أن الناس صاروا يرهبون الموت و يخافونه .

نال اختيار المدافن بدوره حظا كبيرا من العناية، إذ صار الموصون يحددون مكان الدفن . فواحد يعين مكانا قرب داره [35]، وثـــان بمراكش يختار جوار شيخه[36] ، وثالث يحدد جوار زاهد تبركا به [37] . وحدد آخرون مدينة (أو قرية) أو رابطة أو مسجدا [38] . وزاد الاهتمام بالشواهد ووضعها على القبور كما أثبتنا أعلاه . وتؤكد الشهادات الواردة أن الوصايا تكسر عادات سائدة بالبحث عن مجاورة الأصدقاء والأولياء والأماكن المقدسة رغبة في بركتها .

أخيـــرا نصل إلى الصدقات التي توزعت بين الصدقة والعتق والفداء والتحبيس على طلبة العلم والمساجد وأصحاب الحاجات .

خلال القرنين الأخيرين، حصل تغير واضح في موضوع الوصايا . فالاستعداد المادي كاد يختفي وتركز الاهتمام على التأبين مثل: قراءة القرآن على القبر وبناؤه وصدقات على الأصناف التي رأيناها في المرحلة الثانية [39]، وتخصيص مال لإقامة المولد النبوي والحج نيابة عن الميت [40] .

إن التصرفات التي عرضناها بشأن حضور الموت في حياة الأفراد توضح بجلاء مدى هيمنته على أذهانهم وعقولهم لحد الهوس حتى أن من يتتبعها يعتقد أن الحياة موجهة كلها لخدمة الموت . ونعتقد أن المجتمع لا يقل هوسا به، فكيف واجه ذلك ؟

2- الموت في حياة المجتمع

2-1- مساندة المحتضر

يستفيد المائت من رعاية و عناية أسرته و أصدقائه و من ورائهم المجتمع كله. فالكل يجالسه ، يحادثه و يخفف من آلامه حتى لحظة خروج الروح، وبعدها ينتقل الاهتمام إلى أسرته فيشاركونها في تجهيزه ودفنه وتنفيذ وصيته .

يتم التمريض في هذا المجتمع أساسا في البيوت مما يعطي الفرصة للمحتضر للموت وسط أسرته في جو حميمي مؤثر . ويتكون الحضور من أفراد العائلة كما يبين هذا البيت لابن عبد ربه [41] :

من لي إذا جدت بين الأهل والولد وكان مني نحو الموت قيد يدي

وتحدث أحدهم عن احتضار عمه قائلا :" لما احتضر عمي (...) أحاط به أهله وبنوه يبكون وكان له ابن يسمى محمدا أكبر بنيه، وكان عاقا له" [42] . ويشير النص إلى تناسي أفراد العائلة لخلافاتهم و تجمعهم حول المحتضر .

وإلى جانب الأسرة يحضر الأصدقاء والأتباع والتلاميذ [43]. وتتسع الدائرة أو تضيق حسب علاقات المحتضر و مكانته الاجتماعية . فكيف يتصرف هؤلاء ؟

يضيف ابن عبد ربه إلى بيته السابق :

والدمع ينهمل و الأنفاس صاعدة فالدمع في صبيب و النفس في صعد

وهو هنا يؤكد أن الحضور يغرقون في البكاء والنحيب شفقة على المحتضر، لكن الحزن لا ينسيهم القيام ببعض الواجبات مثل تلقينه الشهادة وتوجيهه نحو القبلة[44] ، والاستعداد لاستقبال المعزين و الضيوف [45] ، و مساعدته على وضع الوصية و تحديد الورثة [46]، وقد يتنافسون في حضرته حول التركة و يحاول كل طرف الفوز بما يستطيع [47]، ويغرق الحضور؛ خاصة العلماء والفقهاء والمتصوفة، في تلاوة القرآن بشكل جماعي أو إنشاد الأذكار و الأناشيد الصوفي [48] أو مناقشته في بعض المسائل العلمية أو استعادة ذكريات جميلة معه [49] . وفي هذا الجو المليء بالأنس و التسلية يسلم المحتضر الروح .

يعقب الموت استعداد قوي لتجهيز الميت وبمشاركة واسعة من المجتمع أقرباء وغرباء ، وبعد الانتهاء يحمل في موكب جنائزي إلى مثواه الأخير . ويشهد الموكب أكبر مساندة للميت و أهله رغم التطور الذي عرفه . ففي مرحلة أولى تمتد حتى القرن 4هـ/10م ، كان متواضعا و بسيطا يحضره عدد محدود من أصدقاء الميت و أقربائه ومن يرغب في الأجر [50] . أما الجنازات الكبرى فاقتصرت على الشخصيات الكبيرة من العلماء والقضاة والزهاد والحكام[51] .

وفي مرحلة ثانية بعد ذلك، دخلنا مرحلة الجنازات الكبيرة المخصصة لكل فئات المجتمع خاصة وعامة، و تجاوزت المشاركة الأقرباء إلى ناس لا تربطهم بالميت أية علاقة سوى التواجد في نفس المدينة أو القرية، كما أن أهل الميت يحرصون على جمع أكبر عدد من الناس باستدعائهم. وصارت المواكب تضم الآلاف . فعندما توفي أحمد بن أيوب الزاهد(ق5هـ) " انزعجت العامة بموته انزعاجا لم يسمع بمثله، وشهده الناس حتى خلت قرطبة و احتاج أولو الأمر إلى ضبطها وحرس أبوابها حتى فرغ من شأنها "[52]، وحضر جنازة أبي يعقوب ابن محمد بن أمغار (ت 614هـ/1217م) بأزمور خمسة عشر ألفا أو يزيدون[53] ، وشهد جنازة ابن الصائغ (ت 600هـ/1203م) بسبتة كل الساكنة إلا القلة[54] . إنها مواكب لم تعد تحركها فقط الروابط الدموية أو الصداقة، بل كان خلفها شعور ديني عميق ومتوقد، فلم يعد التفكير في الميت بل في الموت و المصير الذي ينتظر الجميع .

بعد الدفن ينصب مجلس العزاء[55] ، فيتقدم المعزون إلى أولياء الميت ويكررون عبارات التسلية و العزاء كما يرد عليهم بعبارات تحددها ثقافة كل واحد . ويتواصل المأتم لمدة ثلاثة أو سبعة أيام[56] . وتجتمع النساء في مجالس معزولة للبكاء والندب بحضور باكيات محترفات[57] وبعض المنشدين كما يحصل في مدينة فاس[58] . وتقام خلال المأتم ولائم ازدادت فخامتها مع الزمان ويقيمها أهل الميت أو جيرانه[59] .

أخيرا يتدخل المجتمع لتنفيذ وصية الميت بإشراف القضاة وأمنائهم على الوصايا[60] .

يظهر جليا الحضور الدائم للمجتمع مع الميت وأهله مما يبرز تورطه القوي في الموضوع و انشغاله به .

2-2- توفير الخدمات الخاصة بالموت و أماكن الدفن

وفر المجتمع خدمات متنوعة لمساعدة الميت روحيا و ماديا .

سبق لنا الحديث عن أهم الخدمات الروحية التي يحتاجها الميت وهم القراء أو حفظة القرآن، ويرافقونه في كل مراحل انتقاله إلى العالم الآخر بحضورهم الاحتضار والغسل والصلاة والموكب الجنائزي والمأتم وزيارة القبر خلال أيام المأتم أو بعدها . ومنذ القرن 6هـ/12م ، نافستهم جماعة أخرى شكلها المتصوفة (الفقراء) بمشاركتهم أو تعويضهم ، بل إن الناس يلتمسون بركتها ويدفعون لها أجورا محترمة و يقيمون لها الولائم لتقبل الحضور في مآتمهم . وإلى جانب هؤلاء تحضر الباكيات المأجورات و المنشدون الذين يغنون ويضربون على الدفوف[61].

تشتمل الخدمات المادية على عناصر عديدة ، أولها الغاسل . فرغم أن أي شخص يمكنه القيام بهذه المهمة ، إلا أن بعض الأشخاص احترفوا هذه المهنة وصار لكل درب غاسل خاص به [62] . ويؤدي هؤلاء خدماتهم إما مجانا ورغبة في الأجر أو مقابل أجور [63] . وثانيا الحناط ، حيث ينتشر بالمدن تجار و دكاكين متخصصة في بيع الحنوط والأكفان رغم كونها مهنة ممقوتة كما يؤكد هذا القول الشائع في الأندلس : " لا تدخل ولدك جزارا ولا حناطا ولا بائع كفن، قيل(...) في الحناط أو بائع الحنوط والكفن لما يلازم ذلك من حب غلاء الأسعار على تأويل أو حب كثرة الموت الواقع في الناس ." [64] . وثالثا حافر القبر، إذ يوجد في كل المقابر ناس يحفرون القبور لا تقل سمعتهم سوءا عن سابقيهم [65] .

إلى جانب ذلك، وفر المجتمع الأماكن التي يحتاجها الموتى . ومنها أماكن الغسل . وإذا كانت هذه العملية تتم في البيوت، فإن بعض أفراد المجتمع من الفقراء والغرباء وحتى المغضوب عليهم والمجاذم يغسلون في أماكن خاصة داخل المساجد والمقابر . فقد ورد حديث عن " موضع غسل المحاويج " في مسجد

قرطبة[66] . ومنها أيضا أماكن الصلاة . فرغم إمكانية إقامتها في أي مكان، فإن المجتمع قد خصص لها بعض المواقع، فأغلب المساجد الجامعة تحتوي على قاعة للصلاة على الجنائز يدخل إليها من باب خاص يدعى باب الجنائز، ووجدت بفاس ومراكش وإشبيلية [67]. ومنها أخيرا المقابر الأكثر أهمية. ولا تختلف عن المساجد، لذلك يلزم كل أمير بتوفير أرض للدفن من الأملاك العامة أو من مال بيت المال[68] و له الحق في توسيعها إذا ضاقت بنزع الملكية [69]. لكن جماعة المسلمين لا تنتظر أولي الأمر إذ تحول الأراضي الخالية إلى مقابر أو يحبس بعض المحسنين بعض أملاكهم لذلك [70] .

تظهر تدخلات المجتمع أن هوسه بالموت لا يقل عن مثيله عند الأفراد .

خاتمة:

أبانت السطور أعلاه مدى الاهتمام الذي يخصه سكان المغرب والأندلس للموت في العصر الوسيط، وهذه العناية تجعل المتتبع يتخيل أن كل حركة يقومون بها تصب في اتجاه الاستعداد للموت و الحياة الأخرى، وبذلك تكون الحياة في خدمة الموت. ولم يكن ذلك ليحصل لولا الضغط الذي يمارسه على عقولهم وأذهانهم . وقد زادت من حدته حملات الوعظ والتخويف التي قادها المتصوفة والوعاظ . وبين اندماج المجتمع في الموضوع أن المسألة ليست فقط إحساسا فرديا وفريدا، بل هو ظاهرة اجتماعية واسعة الانتشار . ويجب أن نشير إلى أن التأثير بين الموت والحياة لا يسير في اتجاه واحد، بل هو تأثير متبادل حتى إن صورة الموت تغيرت وفقا لتغير النظرة إلى الحياة .

1- وردت هذه الصور بشواهد متعددة في أطروحتنا لدكتوراه الدولة "موقف أهل المغرب و الأندلس من المرض و الموت في العصر الوسـيط" كليـة الآداب- جامعة محمد الخامس – أكدال الربـاط ، 2001 ، ص.146-159.

2- عياض، ترتيب المدارك ، مطبة فضالة المحمدية ، 1981 ، ص. 102.

3- التادلي ابن الزيات، التشوف ، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء ، 1984، ص.425 .

4- الحضرمي ، السلسل العذب ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد 10 ج1 ماي 1964 وص.47

5- التشوف، ص.166 و 170-171 – البادسي، المقصد الشريف ،المطبعـة الملكية، الرباط، 1982، ص.133 – ابن الخطيب ، الإحاطـة ، مكتبـة الخانجي ، القاهرة ، 1973 ، ج 3 وص.227 ز

6- الموقف من المرض ، ص. 162-168 .

7- نفسه ، ص.168-169 .

8- ابن عذاري ، البيان المغرب ، دار الثقافة بيروت 1983 ، ج2 ، ص.101.

9- ابن بشكوال ، الصلة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1955 ، ج1 ، ص.30.

10- ابن الأبار ، الحلة السيراء ، الشركة العربية للنشر ، القاهرة ، 1963، ج2 ، ص.126 .

11- ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ،ج2 ، ص.255 .

12- كتب ابن الطليطلي (ت 352 هـ/962م) في ذلك يقول :

خذ من شبابك قبل الموت و الهرم و بادر التوب قبل الفوت و الندم

13- عياض ، المرجع السابق ، ج6 ، ص.176 .

14- ابن القوطية ن تاريخ افتتاح الأندلس ، دار النشر للجامعيين، ص.77.

15- ابن حيان ، المقتبس ، المعهد الوطني للثقافة ، مدريد، 1979 ، ج5، ص.152 .

16- ابن حزم ، طوق الحمامة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1992 ، ص. 116-117- الإحاطة ، ج3 ، ص.81 - ابن عذاري ، المرجع السابق ، ج2 ، 289 .

17- ابن عذاري، قسم الموحدين، ص.233 .

18- الموقف من المرض، ص. 177-178 .

19- ابن عذاري، المرجع السابق، ج2 ،ص.288 .

20- كان عنوان كتابه " الإنباء على أسماء الله الحسنى"، الصلة، ج2، ص.280 .

21- ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، دار الثقافة، بيروت، ج1، ص.238 .

22- الموقف من المرض، ص.177-180.

23- نفسه، ص.395-402 .

24- التادلي، المرجع السابق، ص.47 و 240 .

25- عياض، المرجع السابق، ج4، ص.255 .

26- الخشني، قضاة قرطبة، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة، 1952، ص.87 .

27- مجهول ،أخبار مجموعة، دار الكتاب اللبناني، بيروت ،1981، ص109.

28- ابن عذاري ، المرجع السابق، ج2 ،ص.288 .

29- التادلي، المرجع السابق، ص.206 .

30- الذيل والتكملة، ج1، ص.364 .

31- نفسه، ص.268 .

32- الموقف من المرض ، ص. 189 .

33- نفسه ، ص.188 .

34- الذيل والتكملة، ج8 ، ق1، ص.285 .

35- ابن بشكوال، المرجع السابق، ج1، ص.92 .

36- الذيل، ج4، ص.21.

37- نفسه، ج8، ص.221 .

38- ابن أبي زرع ، الذخيرة السنية ، دار المنصور، الرباط، 1972، ص.84

39- الموقف من المرض، ص.190-191.

40- نفسه ، ص.193-194 .

41- الونشريسي، المعيار المعرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ج9، ص.252 و 378 .

42- ابن عبد ربه ، ديوانه ، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1979، ص.52 .

43- ابن الأبار، التكملة، ج2، ص.29 .

44- الموقف من المرض وص.199.

45- التشوف وص.142 – المعيار المعرب ، ج1، ص.305 – رسالة ابن أبي زيد القيرواني، كانو، ص.53.

46- ابن القاضي ، جذوة الاقتباس، دار المنصور، الرباط، 1973، ص.183 .

47- عياض ، مذاهب الحكام، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 199، ص.130.

48- نفسه وص131 – ابن الحاج، نوازله، مخطوط الخزانة العامة، رقم 55، ص 221–222 .

49- ابن رشد ، البيان والتحصيل، دار الغرب الإسلامي، بتروت، 1988، ج2 ، ص.234 .

50- الحضرمي، المرجع السابق ، ص.44–45 .

51- LEVI-PROVENçAl(E). Histoire de l'Espagne musulmane . éd. Maisonneuve . Paris .1953 . p.406 .

52- الخشني، أخبار الفقهاء والمحدثين، معهد التعاون مع العالم العربي، مدريد، 1992، ص.148 و 230 .

53- ترتيب المدارك، ج8، ص.40 .

54- التشوف، ص.426 .

55- الذيل والتكملة، ج3 ق2، ص.386 .

56- ابن عذاري والمرجع السابق و ج2 ، ص90–91 .

57- الطرطوشي، الحوادث والبدع، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990 ، ص.335 – التكملة، ج2، ص.817 .

58- ابن عبد الرؤوف، رسالة فالحسبة ،مطبعة المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، 1955، ص.77 – الداودي، كتاب الأموال، مكتب إحياء التراث المغربي، الرباط، ص.164 .

59- الوزان، وصف إفريقيا، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص.258

60- القرطبي، التذكرة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ص.117 – الونشريسي، المرجع السابق، ج1، ص.388 .

61- ابن سهل، وثائق في الحسبة، المطبعة العربية الحديثة، القـــاهرة، 1985، ص.75 – الصلة، ج1، ص.259 .

62- الموقف من المرض، ص.275–276 .

63- ابن خاقان، مطمح الأنفس، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1983، ص.160 – التشوف، ص.285 .

64- ترتيب المدارك ، ج7، ص.191 – الصلة، ج1 ، ص.208 .

65- ابن الخطيب، مثلى الطريقة، دار المنصور والرباط، 1973، صز21

66- الونشريسي، المرجع السابق، ج7، ص.330 .

67- نفسه، ص.150 – ترتيب المدارك، ج7 و ص.180 .

68- الموقف من المرض ، ص.233–234 .

69- ابن عذاري، المرجع السابق، ج2 ، ص.62 .

70- ابن عبدون، المرجع السابق، ص.216–217 .

71- الموقف من المرض، ص.331–333 .